نيسان/أبريل 2016

الألتراس.. جماهير الكرة المنظّمة في مصر

مقاربة تحليليّة

داليا عبد الحميد *

يعلم المتابع لأحوال الألتراس أنّ محكمة استئناف الأمور المستعجلة في القاهرة قد قضت في أيار / مايو 2015 بحظر جميع روابط الألتراس[1] على مستوى الجمهورية، وذلك في الدعوى التي رفعها "مرتضى منصور" رئيس نادي الزمالك وطالب فيها بحظر الروابط لتورّطهم في أعمال شغب وتخريب.

ويعلم المتابع أيضاً أن دخول الجماهير لل"استاد" أصبح الآن حلماً بعيد المنال بالنسبة لهذه المجموعات، بل تنادي بعض الأصوات الآن بالسماح للجماهير بالعودة للمدرجات، ومنع مجموعات الالتراس تحديداً من دخول ال"استاد" بحجّة أنه لا يحق لبعض المجموعات المشاغبة أن تمنع باقي الجماهير من متعة مشاهدة كرة القدم.

هذا الهوس بمنع "الألتراس" من دخول ال"استاد" وبالتالي القضاء على سبب تنظيمهم الرئيسي ربما يساعدنا في فهم طبيعة المعركة بين روابط الألتراس من ناحية وبين قوات الأمن والإعلام الرياضي وبعض رؤساء الأندية من ناحية أخرى.

بدأ الكثيرون مؤخراً في استيعاب معركة الألتراس الخاصة بحرية المشجّعين في حضور المباريات وحقهم في تشجيع فرقهم بالطريقة التي يريدونها، بعد أن ظلّت مجموعات الألتراس لفترة طويلة أسيرة لأحكام معلّبة وجاهزة تتأرجح في تصنيفهم بين "أبطال الصفوف الأمامية" في معارك الثورة، و"مجموعة فاشية" تهلّل لأحكام الإعدام في قضية مذبحة بورسعيد، أو "جماعة مخترقة" يمولها "خيرت الشاطر" ويشارك أفرادها في اعتصام رابعة.

تسعى هذه الورقة – في القسم الأول منها- لمناقشة معركة الألتراس الجوهرية وحقيقة خصومتهم مع الدولة، وإلى أي مدى يمكننا أن ننظر إلى هذه المعركة كمعركة سياسية متّخذةً من الاستاد وحدة تحليل؛ بالنظر للاستاد كمنطقة متنازع عليها وللألتراس كتنظيم هادف للمتعة من خلال التشجيع والسفر خلف الفريق.

تناقش الورقة بعدها آليات انخراط الألتراس في الحراك الثوري، وكيف أثّر وجودهم على باقي الفصائل الثورية، وكيف تأثرت حركة الألتراس نفسها بالحراك الأوسع.

1 للمزيد عن حكم المحكمة http://www.bbc.com/arabic/sports/2015/05/150516_egyptian_court_ban_ultras

* داليا عبد الحميد مسئولة ملف النوع الاجتماعي وحقوق النساء بالمبادرة المصرية للحقوق الشخصية.

فيما يسعى الشقّ الثاني من الورقة للنظر إلى التركيبة التنظيمية للألتراس والطريقة التي يبني فيها الألتراس روابطهم المختلفة سواء بين بعضهم البعض أو بينهم وبين ناديهم؛ فمن خلال أنشطة كالغناء والتشجيع الجماعي يتمكن المشجعين من تجاوز الفوارق الطبقية والتعليمية والعمرية بينهم، وتساعد البنية التنظيمية المعتمدة في مناطق السكن على جعل المجموعة ليست حدثاً متصلاً بالاستاد فحسب وإنما جزءاً من حياة الفرد اليومية في مكان سكنه.

وتعتمد الورقة في منهجيتها على عدد من المقابلات مع أفراد من مجموعتي الألتراس اللتين تشجّعان ناديَي العاصمة؛ "ألتراس أهلاوي" يشجّع النادي الأهلي و"ألتراس وايت نايتس" وهي المجموعة المساندة لفريق الزمالك ترافقتهم في عدد من التدريبات داخل "ستاد التتش" في النادي الأهلي، وتحضر بعض المباريات بالإضافة إلى بعض الاجتماعات العامة في محيط "ستاد القاهرة"، إلى جانب مشاركتهم في عدد من المسيرات والمظاهرات وكذلك اعتصام "ألتراس أهلاوي" في أبريل 2012.

خلفية

بدأت مجموعات الألتراس - أو الأولتراس كما يحبذ بعض أفراد المجموعة كتابتها - تعرف طريقها إلى مدرجات الكرة المصرية في عام 2007. وهناك خلاف بين جماهير الأهلي والزمالك حول من أدخل الظاهرة إلى مصر أولاً.
إلّا أن الثابت في الأمر أن هذه المجموعات تكوّنت من بقايا روابط كرة القدم مثل رابطة "محبي الأهلي" ورابطة "محبي نادي الزمالك"، ومن بعض عشاق اللعبة الذين أتيحت لهم فرص السفر للخارج والاطّلاع على مجموعات الألتراس في مختلف أنحاء العالم وتكرار التجربة هنا.
المتفق عليه أيضاً أن أوّل مجموعتي ألتراس تم تكوينهما هما الخاصتين بناديي العاصمة الكبيرين الأهلي والزمالك، وهما "ألتراس أهلاوي" Ultras Ahlawy 2007 UA07 لتشجيع النادي الأهلي و"ألتراس وايت نايتس" Ultras White Knights لتشجيع نادي الزمالك.
خلال السنوات التي تلت 2007 تكوّنت العديد من مجموعات الألتراس الأخرى مثل "ألتراس يلو دراجونز" Yellow Dragons لتشجيع فريق الاسماعيلي و"ألتراس جرين إيجلز" Green Eagles لتشجيع النادي المصري ببورسعيد و"ألتراس جرين ماجيك" Green Magic لتشجيع نادي الاتحاد السكندري وغيرها.
الفارق الرئيسي بين روابط الأندية ومجموعات الألتراس هو تبعية الأولى للأندية ومجالس إدارتها من حيث التمويل وآليات اتخاذ القرار، في الوقت الذي نلاحظ فيه استقلالية لمجموعات الألتراس عن مجالس إدارة الأندية وكذلك طرق التمويل التي تعتمد بالأساس على التمويل الذاتي.
الفارق الثاني هو مدى احترافية التشجيع فيما يخص الغناء والدخلات، فروابط الأندية السابقة كانت تشجع وتسافر خلف الفريق لكن لم يكن لها نفس الدرجة من الانضباط والتنظيم في الغناء وتصميم الدخلات والفنون الأدائية التي تستلهمها مجموعات الألتراس من بعضها البعض عبر البلاد المختلفة. (بشير، 2011)
الفارق الثالث الذي يجب توضيحه في البداية هو الفارق بين الألتراس والهوليجانز؛ فالهوليجانز أيضاً جماهير منظمة للعبة ولكنها تسعى دائماً إلى العنف وأحد أهم أهدافها هو افتعال مشاجرات والتورط في أحداث شغب سواء مع الشرطة أو مع جماهير الفريق المنافس.

فقد كانت ظاهرة "الهوليجانز" أو الهوليجانية ظاهرة شديدة الانتشار في انجلترا؛ حيث يعتبر شغب الملاعب جزءاً لا يتجزّأ من تعاطي الجماهير مع الكرة، إلا أن مجموعات الألتراس والتي تعتبر البداية الحقيقية لها هي دول المتوسط وبالأخص فرنسا وإيطاليا، فهي مجموعات هدفها الرئيسي تشجيع الفريق ودعمه المستمر وذلك من خلال حضور جميع المباريات حتى تلك التي لا تقام في المدينة، وذلك من خلال السفر والترحال وراء الفريق وكذلك الالتزام بالتشجيع والغناء لمدة تسعين دقيقة كاملة طوال مدة المباراة بغض النظر عن النتيجة سواء كان الفريق منتصراً أو مهزوماً.
وتتنافس مجموعات الألتراس فيما بينها في تأليف الأغاني للفرق التي تشجعها وفي الدخلات المختلفة وتصميم التيفو Tifos[2] المتنوعة. وقد ينخرط أفراد الألتراس في اشتباكات ضد الشرطة في الأغلب أو ضد جمهور الفريق المنافس، ولكن الألتراس لا ينظر لنفسه كمجموعة عنيفة ولا يبادر بالعنف. (جوشون، 2007)

ما الذي يحارب الألتراس من أجله؟

قد لا يتصوّر البعض أن معركة الألتراس حتى من قبل كانون الثاني / يناير 2011 هي معركة مشروعة أو سياسية أو حتى مفهومة، وقد لا يستوعب الكثيرون لماذا تحارب قوات الأمن مجموعات من الشباب لا يريدون سوى الرقص والغناء وإشعال عدد من الشماريخ، ولكن المتتبع لصراع الألتراس والشرطة سيعلم تمام العلم كيف تحاول قوات الأمن طوال الوقت فرض سيطرتها على الاستاد وجماهيره وإثبات أن لها اليد العليا عليه.

ويعد الاستاد في نظر السلطة والشرطة مكان لاستعراض النفوذ والسيطرة، وتفعّل عادةً السلطات ذلك من خلال ما يسمى "الأحداث الرياضية الكبرى"(Mega Sports Events (MSE مثل تنظيم الأولمبياد أو البطولات الإقليمية أو الدولية، حيث يتم تسليع الرياضة في هذه الأحداث وتحويلها لمناسبات للتأمين المبالغ فيه.

وعند النظر إلى تاريخ "استاد القاهرة الدولي" فأول ما يجب التوقف عنده هو أنّ المعماري الذي صممه "وارنر مارش" هو نفس المعماري الألماني الذي صمم الاستاد الأولمبي ببرلين في ثلاثينيات القرن العشرين في إطار حملة برورباجندا عنيفة لهتلر،[3] ليس ذلك فقط بل إن "جمال عبد الناصر" افتتح الاستاد في تموز / يوليو 1960 بمناسبة العيد السادس لثورة تموز / يوليو 1952[4].

استضاف ستاد القاهرة الدولي منذ افتتاحه العديد من المراسم الرئاسية، بداية من "ناصر" ووصولاً إلى "محمد مرسي". وقد استخدم جميع الرؤساء الاستاد في مراسم استعراضية لإرساء نفوذهم أو التباهي به؛ ففي عام 1964 استضاف "جمال عبد الناصر" نظيره الروسي "خيروشوف" في ستاد القاهرة، الذي شهد أيضاً بعد قرابة خمس عقود المؤتمر الذي أقامه الرئيس السابق "محمد مرسي" بصحبة مؤيديه من المجموعات الإسلامية والذي قطع خلاله الصلات الدبلوماسية مع سوريا قبل أسابيع قليلة من الانقلاب عليه[5].

2 التيفو هو كلمة مشتقة من الإيطالية وتعني التيفود وسميت بذلك لتنقل إحساس الحماس الذي يصل لحد الحمى لدى المشجعين

3 المزيد من العلوماتhttp://www.thirdreichruins.com/olympic.htm

4 المزيد من المعلومات عن تاريخ ستاد القاهرةhttp://nasser.bibalex.org/Speeches/browser.aspx?SID=1081

http://www.cairo-stadium.com/articlesdetail.aspx?id=N10

5 لمزيد من المعلزماتspx.74082/News/eg.org.ahram.english://:

أما الرئيس السابق "حسني مبارك" – صاحب أطول مدّة رئاسية في مصر- فهو أيضاً صاحب تاريخ طويل في استغلال الأحداث الرياضية للدعاية السياسية؛ ففي عام 2006 قام "مبارك" بتجديد استاد القاهرة لاستضافة كأس الأمم الإفريقية، ورافق ذلك حملة دعاية ضخمة لتشجيع المواطنين على حضور المباريات، وعليه شهد الاستاد في ذلك الوقت توافد العديد من أبناء الطبقة الوسطى والعليا.

وسعت التغطية الإعلامية لهذه البطولة لتأجيج المشاعر الوطنية للجمهور والاحتفاء بالحضور المشرف للمشجعين، لاسيّما مشجّعي ومشجعات الدرجة الأولى والثانية، وأبرزت الصحف صورهم بقبعاتهم الملونة وملابسهم الأنيقة، وقد عكس هذا الاحتفاء العلني بمشجعي المقصورة والدرجة الثانية شبهة احتقار ضمني لمشجعي الدرجة الثالثة عراة الصدور، أصحاب الصوت العالي والألفاظ النابية.

إلّا أن الحادثة الأهم في تاريخ مبارك مع الأحداث الرياضية كانت سلسلة أحداث مباريات مصر والجزائر2009 التي أقيمت في كل من القاهرة والخرطوم في إطار التصفيات المؤهلة لكأس العالم[6]. وقد حضر نجلا الرئيس "علاء وجمال" المباريات في بادرة اعتبرها البعض إشارة لبدء عملية توريث الحكم ل"جمال مبارك"؛ فبعد الاشتباكات بين جمهور الفريقين في مباراة الخرطوم، انطلقت الجوقة الإعلامية تمجّد دور نجلي الرئيس في حماية المصريين في الخارج من الجمهور الجزائري في حملة تأييد وتلميع لعائلة الرئيس الملكية، بالغ فيها المهللون للرئيس إلى درجة هددت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.

وفي مقابل السلطة يوجد الجمهور، الذاهب للاستاد سعياً وراء متعة مشاهدة لعبتهم المفضلة وتشجيع فريقهم الأثير. يتذكر أغلب أفراد الألتراس تجاربهم الأولى داخل الاستاد بوضوح شديد، فهذه التجربة من النوع الذي يغيّر حياتهم إلى الأبد. يعبّر الكثيرون عن هذه الخبرة بشكل يوحي بأنها "تجربة عبور للمشجع"rite of passage، فيصف أحد كابوهات الألتراس تجربته عند دخول الاستاد أول مرة قائلاً:

"أول مرّة دخلت الاستاد كنت صغير جداً، بس اللي فاكره إن كان في ناس كتير ماشية، ورايحة وهي بتضحك ومبتسمة وبتهزر، مثل هذه التجمعات لا تحدث إلا مثلا في صلاة العيد، حينها فقط أرى الناس متجمعة ومبتسمة وسعيدة، كنت متعجباً من تجمع الناس الذي لم أعتد رؤيته إلّا مثلاً في صلاة الجمعة، فاكر إني شفت الناس من البوابات الاستاد بعد ما الأمن يفتشهم. لكن لما دخلت الاستاد نفسه لم يكن هناك كراسي بالاستاد، كانت المقاعد عبارة عن دكك، ف وانتي نازلة على السلم لازم تاخدي بالك عشان ما تقعيش، الموضوع خطر شوية، زي مثلا كأني نازل هرم، كان في ناس كتير جدا انتي مش شايفة غير الرؤوس دي، ما تعرفيش تبصي برة، ونص الاستاد أحمر ونص التاني أبيض، ما ينفعش تلاقي علم أحمر وسط الأبيض وما ينفعش تلاقي تي شيرت أبيض وسط الأحمر، كانهم معسكرين ضد بعض بالضبط، الماتش كان هيبدأ الساعة 7 وأنا أبويا واخدني من الساعة 3، مش فاهم ليه، بعدين عرفت إن يوم الماتش ده بيبقى يوم للماتش يعني ما

---

6 لمزيد من المعلومات عن المباراة
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D8%B2%D8%A7%D8%B9_%D9%83%D8%A3%D8%B3_%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%A7%D9%84%D9%85_%D8%A8%D9%8A%D9%86_%D9%85%D8%B5%D8%B1_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%B2%D8%A7%D8%A6%D8%B1_2009

ينفعش تعملي حاجة تانية تروحي سينما مثلا بعدين تروحي الماتش، تلاقي الناس هناك جايبين صواني أكل والناس جاية من الصعيد والفيوم ومن بحري، وتقابلي كل الناس دي هناك والناس بتتعامل مع بعض إننا قريبين، بس مش قريبين أوي فممكن تحصل خناقة بين جماهير نفس الفريق أو خناقة بين بعض الناس والبياعين, الشتيمة هي كانت أكتر حاجة أخدت بالي منها، الشتيمة المحببة للنفس عند الناس، بتشوفي 100 ألف واحد بيشتموا في بعض وهما فرحانين، محدش بيقول حاجة، المحترم كمان في الاستاد كان بيشتم عشان عارف ان الشتيمة ممكن توقع الفريق المنافس نفسيا فالفريق بتاعه يكسب، فالواحد ممكن يتنازل عشان حاجات مؤمن بيها عشان الفريق بتاعه، فاكر أول شتيمة أسمعها كانت "مدد يا أم هاش.... مدد يا حسين.. ك* أم الأهلي مرة..ك* أمه مرتين".

ويتحدّى كل من الألتراس والشرطة معمار الاستاد، فهذا المكان مصمّم على طراز المسارح الرومانية، لتشاهد الجموع المصطفة في قوس المقاعد اللعبة التي تدور في المنتصف، المكان الذي يصفه الباحثون بأنه بحسب المصطلح "الفوكودي" المراقبة المركزية أوالبانوبتيكون المقلوب وهو ما يسمى "سينوبتيك"، فمن ناحية يتحدّى الألتراس هذا التصميم عن طريق فنونهم الأدائية وغنائهم الجماعي والتي من خلالها يحولون المتفرج على لعبة كرة القدم إلى فرجة في حد ذاته. فباقي جماهير المدرج واللاعبون انفسهم يكونون في انتظار الأغاني والدخلات التي يعدها الألتراس لكل مباراة، وتتحوّل هذه الدخلات إلى فيديوهات يشاهدها الجمهور المتابع لكرة القدم كجزء أساسي من المباراة.

من ناحية أخرى، تعطي قوات الأمن ظهرها للملعب لتواجه بالتحديد جمهور الألتراس داخل المنحنى الشمالي والجنوبي للاستاد، كما تنتشر قوات الأمن بالتحديد أمام مدرجات الدرجة الثالثة التي يحتلّها الألتراس، هذا التوزيع غير المتناسب لقوات الأمن لمراقبة جماهير الدرجة الثالثة هو ما يوصف بالبانوبتيكون المجزأ (جيليانوتي، 2011) .

أمّا على الجانب الآخر، فتبقى أماكن الألتراس داخل الاستاد ثابتة (المنحنى الموجود في مقاعد الدرجة الثالثة) the curve أو الكورفا كما يطلق عليه الإيطاليون، اختيار هذه المكان ليس أمراً اعتباطياً فهو إعلان من جانب الألتراس عن تماهيهم مع جمهور الدرجة الثالثة المشاغب الذي يكثر من السباب والغناء ولا يهدأ، كما أنه امتلاك لهذه البقعة التي يغنون لها في أناشيدهم ويدافعون عنها ضد هجمات المجموعات الأخرى وقوات الشرطة، الأهم من ذلك إنها تعبير عن ولاء الألتراس

المطلق للنادي، فهذه البقعة العمياء الواقعة خلف المرمى هي أسوأ مكان يمكن للمشجعين أن يشاهدوا منه المباراة ولكنهم لا يبالون لأن مشاهدة المباراة ليست همهم الأول بل التشجيع المستمر وشحذ همم اللاعبين.

لا يتوقف تحرش الأمن بالمشجعين وخاصة الألتراس على مراقبة المدرج، فالتضييق على الألتراس يبدأ في أحيان عديدة من قبل بدء المباريات، وذالك لأن المعركة بالأساس على طريقة التشجيع، فالشرطة تريد تأديب المشجعين فيما ترغب مجموعات الألتراس في التشجيع على طريقتهم الخاصة التي تشمل فيما تشمل الغناء 90 دقيقة وعدم التوقف لثانية واحدة عن عمل دخلات ورفع الشعارات والبانرات خلال التشجيع وإشعال الشماريخ وإطلاق الدخان الملون خلال المباراة.

ويلخّص عادل – فرد ألتراس أهلاوي- المشكلة بين الألتراس والشرطة قائلاً "مش من حق حد يقول لي ازاي أشجع فريقي، لما بأولع شمروخ انا بأمسكه بيدي ومش بأرميه في وش الضابط، ليه يعترض الضابط على ده؟"

من خلال الشهادات التي تم تجميعها، يمكن القول أنّ عداء الشرطة لمجموعات الألتراس لا يكمن فقط في كون أفراد هذه المجموعات تشعل الشماريخ أو تتورط في معارك صغيرة مع بعضها البعض، فخلال السنوات من 2007 وحتى 2011 كانت قوّات الشرطة تمنع المشجعين من الدخول بالأعلام والبانرات الخاصة بالمجموعة، بل إنه في العديد من الأحيان كانت قوات الأمن تطلب من المشجعين خلع ال "تي شيرت" الخاص بالمجموعة إذا أرادوا الدخول إلى الاستاد.

كما يشير أفراد الألتراس إلى بعض الإجراءات الروتينية التي كانت الشرطة تقوم بها قبل المباريات الكبيرة لاسيّما "الديربي" (الاسم الذي يطلق على المباراة التي تجمع أكبر ناديين في العاصمة، الأهلي والزمالك)، في مثل هذه الحالات تقوم الشرطة بالقبض على كابوهات (قادة الهتاف داخل الاستاد) مجموعتي ألتراس أهلاوي وألتراس وايت نايتس وتحتجزهم حتى نهاية المباراة أو لعدة أيام بعدها، كما كان الأمر يصل في بعض الحالات إلى قيام الشرطة بالقبض على بعض مشجعي الألتراس أثناء دخولهم من بوابات الاستاد واحتجازهم في غرف تغيير الملابس الخاصة باللاعبين حتى نهاية المباراة.

"إنها معركة من يسيطر على الاستاد" كما صاغها أحد أفراد الألتراس، هذا التنافس على الاستاد كمساحة عامة ودفاع الألتراس عن حقهم في التواجد داخله وحقهم في التشجيع بطريقتهم الخاصة وشراسة الداخلية من ناحية أخرى لفرض سيطرتها على الاستاد ومن فيه، دفع الجانبين للدخول في معارك مستمرة داخل الاستاد وفي المناطق المحيطة به على مدار هذه السنوات.

ودائماً ما يحكي أفراد ألتراس أهلاوي على ازدياد حدة التوتر بينهم وبين الداخلية لاسيّما في الأشهر التي سبقت الثورة، مثل مباراة الأهلي الودية مع كفر الشيخ في حزيران / يونيو 2010 والتي يحكي أفراد الألتراس أنّها شهدت معارك شرسة بين الأمن والجمهور، فطبقاً لرواية ألتراس أهلاوي إن جنود الأمن المركزي هاجموهم بعد أن غنّت المجموعة "خافي منا يا حكومة.. جايين الليلة ناويين... جمهور الأهلي ولعوها..ك** أم الضابط عالأمين"، أمّا رواية الصحافة فتحكي قصة مختلفة أنّ الألتراس أشعلوا شماريخ كثيرة بعد أن أحرز الأهلي هدفه الأول وألقوها على أرضية الملعب مما دفع الامن لمهاجمتهم[7].

7 تغطية موقع اليوم السابع للمباراة http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=253638#.UppXKsQW1Eh

وشهد "الديربي" الذي أقيم في أواخر 2010 تزمّتاً أمنياً غير مسبوق، فيروي أحد المشجعين أنه لم يسمح في ذلك اليوم بدخول أي أدوات تشجيع ولا حتى صافرات، كما تغير توزيع قوات الامن داخل الاستاد لتحتل الواصل بين المقاعد وبالتالي تمنع أي مشجع من تغيير مكانه.

يحكي جماهير ألتراس أهلاوي أن واحدة من أعنف المواجهات كانت يوم 23 كانون الثاني / يناير في مباراة الأهلي والمقاصة، التي رفع خلالها الجماهير بانر ألتراس أهلاوي بعد تسعة أشهر من منع أي بانر من الدخول إلى الاستاد بعد مباراة الأهلي والزمالك التي أقيمت في بداية العام، وما إن رفع بانر المجموعة حتى بدأت الاشتباكات وقبض خلالها على بعض أفراد ألتراس أهلاوي وتم الإفراج عنهم يوم 25 كانون الثاني / يناير 2011.

الأشهر الأولى التي أعقبت كانون الثاني / يناير2011 شهدت سيطرة وانتصارا لمجموعات الألتراس على الداخلية، كانت الجماهير تدخل الاستاد بحرية تامة حاملين أعلامهم وبانراتهم والشماريخ دون أدنى تدخل من الأمن، كما عبّرت مجموعات الألتراس عن انتصاره على قوات الشرطة في الميادين من خلال الأغاني التي ألفوها وغنوها في دخلات المباريات التي أقيمت في شباط / فبراير وآذتر / مارس 2011 والتي تحوّلت مع الوقت لأناشيد ثورية مثل "مش ناسيين التحرير"و "شمس الحرية" وغيرها.

وقد غابت الشرطة تماماً في بعض المباريات التي أجريت في شهر آذار / مارس، وكانت جماهير الألتراس هي من تنظّم الدخول والخروج من الاستاد، كما كانت هذه المباريات فرصة ذهبية لجماهير الألتراس لإقامة عروض البايروشو، التي يقومون خلالها بإشعال مئات الشماريخ في نفس الوقت كما يظهر في الصورة.

لم تلبث الشرطة أن عادت إلى مراقبة الاستاد مرة أخرى لاسيّما بعد مباراة الزمالك والإفريقي التونسي التي نزل خلالها الجمهور إلى أرض الملعب، ورغم عودة الشرطة للاستاد إلا أنّ الألتراس ظلوا محتفظين باليد العليا، فكانوا يرفضون أن يتم تفتيشهم ويدخلون بكامل عدتهم وعتادهم الخاص بالتشجيع ويغنون ويسبون كما يحلو لهم، لكن بدءاً من أيلول / سبتمبر2011 انتهت أيام سكوت أفراد الشرطة عندما يستمعون لسبابهم بآذانهم، ففي مباراة الأهلي وكيما أسوان[8] في ذلك الشهر بدأت جماهير "أولتراس أهلاوي" تسب "مبارك" و"العادلي" فانقض عليهم جنود الأمن المركزي وبدؤوا يلاحقونهم حتى خرجوا من الاستاد، يقول أحد أفراد المجموعة في لقاء معه حول هذه المباراة "لقد سبنا أباهم الروحي – يقصد العادلي- لذا كان لابد أن يهاجمونا"

---

8 تغطية المصري اليوم للمباراة http://www.almasryalyoum.com/node/493032

هكذا ظل الاستاد محل نزاع حتى حولته قوات الشرطة والجيش إلى ساحة قتل ففي 2 شباط / فبراير 2012 أثناء مباراة الأهلي والمصري في ستاد بورسعيد، وقفت يومها الشرطة مكتوفة الأيدي وهي تشاهد جماهير المصري ولاسيّما أفراد الألتراس الخاص بالمصري "جرين إيجلز" وهم يهاجمون مدرجات ألتراس أهلاوي بالعصي والسنج والأسلحة البيضاء، ووجد جماهير الأهلي أنفسهم محاصرين بين جماهير المصري وبين البوابة المغلقة خلفهم والتي لا يعلم أحد كيف ولماذا تم إغلاقها في مأساة أسفرت عن قتل 72 مشجّع من أولتراس أهلاوي.

بعد هذه المجزرة لم تعد الأمور أبداً لسابق عهدها، حارب "التراس أهلاوي" لاستعادة حق الشهداء واعتصموا قرب مجلس الوزراء في نيسان / ابريل 2012، وحرم بعدها الجمهور من دخول الاستاد، وظل أفراد ألتراس وايت نايتس يحاربون لإثبات حق الجمهور في حضور المباريات، فيما ظل هذا الحق في يد الشرطة تمنحه وتمنعه وقتما تشاء.

ولم تقتصر المذابح على ألتراس أهلاوي فقط، فبعد ثلاث سنوات من مذبحة بورسعيد وفي نفس الشهر شباط / فبراير، تحديداً يوم 8، قامت قوات الأمن بتركيب قفص حديدي لتنظيم دخول الجمهور لحضور مباراة "الزمالك وإنبي" بالدوري العام وأثناء توافد الجماهير على استاد الدفاع الجوي قامت الشرطة بإطلاق الغاز المسيل للدموع على الجماهير ووقعت اشتباكات وعمليات تدافع أسفر عنها وفاة 20 مشجع من جماهير نادي الزمالك.

يمكننا هنا استلهام أفكار "آصف بيات" لفهم طبيعة هذه المعركة من الناحية الأنثروبولوجية، ففي حديثه عن طبيعة معارك أبناء مدن العالم الثالث ذات التوجه النيوليبرالي، يقول "بيات" أن اعتراض سكان هذه المدن من شباب وعاطلين وأطفال شوارع وباعة جوّالين وربّات بيوت لا يتخذ عموماً الأشكال التقليدية للمظاهرات والاعتصامات وغيرها وذلك لأنه لا يوجد غطاء مؤسسي لهذه المجموعات.

لذا فهم يشتبكون مباشرة مع الفضاء العام لمدينتهم ويحتلون شوارعها ومساحتها، وهذه هي حالة الألتراس مع الاستاد الذي اشتبكوا معه كمساحة للتعبير عن شبابهم ومكان يسعون فيه للمتعة والترويح عن أنفسهم.

لا يمكننا تطبيق نظريات "آصف بيات" بالكامل على تجربة الألتراس المصرية فهو يتحدث في أغلب الأحيان عن مجموعات غير منظمة تكون مجتمعة في شكل أسماه الكاتب "اللاحركة" non-movement بينما الألتراس مجموعة شديدة التنظيم، ولكن بالنظر إلى حالة مصر قبل كانون الثاني / يناير 2011، يمكننا اعتبار الألتراس – على الرغم من تنظيمهم الداخلي الواضح - جزء من حالة هذا الحراك المتشظي أو non-movement التي سادت في تلك السنوات.

بالإضافة إلى ذلك، ففرضيات "آصف بيات" هامة لأنها تساعد في فهم الجانب المتعلق بالفضاء العام في هذا التنظيم وكذلك الجوانب المتعلقة بالحق في المتعة والسعي وراءها من خلال تنظيم شبابي، كما سيظهر لاحقاً.(بيات،2007)

الألتراس وإعادة تعريف ما هو سياسي

يمكن إرجاع شراسة الأمن في مواجهة جماهير الكرة إلى سببين أساسيين الأول متعلق باكتمال إحكام القبضة البوليسية على مصر خلال العقد الأول من الألفية، ويأتي هنا قمع الألتراس مثله مثل قمع أي فصائل تزعج الآلة الأمنية. والثاني وهو السبب الذي يذكره أفراد الألتراس كثيراً عند سؤالهم عن هجوم الأمن المتكررعليهم هو خوف جهاز الأمن من وجود تنظيم شبابي قوي يضم أعداداً كبيرة بغض النظر عن هدف هذا التنظيم.

وتعي قطاعات واسعة من جماهير الكرة المنظمة أن التنظيم عنصر تخشاه الدولة كثيراً وتسعى لمحاربته حتى وإن كان هدف هذا التنظيم الأساسي تشجيع الفرق الرياضية وأنشطته الجامعة هي الرقص والغناء والسفر خلف الفريق لمؤازرته أينما لعب.

وقد نختلف على مدى سياسية تنظيم الألتراس، فقد يرى سياسيون أن الألتراس تنظيم غير مسيّس وبالتالي فهو تنظيم هش بالضرورة خاصة في ظل اعتماده على شريحة عمريّة معينة كما يقارن بعض الماركسيين بين تنظيمات الألتراس وبين الحراك الطلابي المرهون بوجود الطلبة في مرحلة زمنية في سنين التعليم.

ويقول أحد الكتاب اليساريين في مقابلة معه "يخرج الطلبة من التعليم ليبدؤوا انخراطهم في سوق العمل مما يعني بالضرورة اختفاء الوقت اللازم للتفرغ للألتراس ومتطلباته".

ورغم كون الكاتب محقّاً بدرجة ما في نظريّته لأن التنظيم يتطلب التزاماً ودأباً شديداً من حضور اجتماعات السكاشن والتجهيز للمباريات وحضور التدريبات في النادي والمباريات في الاستاد وكذلك السفر خلف الفريق، وفيما يتفق بعض قيادات الألتراس السابقين والحاليين في أن الأشخاص قد يغادرون الألتراس لظروف السفر والعمل والالتزامات الحياتية، ولكن ذلك لا يقلل من طبيعة معركتهم التي قدر لها أن تكون سياسية بامتياز ربما بحكم نشأتها في سياق أمني وظرف يسيّس كل المعارك.

ولا يبدو "التنظيم" هو الهاجس الوحيد للنظام بل من الواضح أن الذراع الأمني للدولة يؤرّقه وجود تنظيم يسعى للمتعة ويسعى أفراده بالأساس إلى الوصول لمستوى احترافي في الغناء والرقص والفنون الأدائية، ولا تنبع عداوة الدولة وخوفها من المرح والمتعة فقط من فكرة تمجيد الفرد العامل المنتج على حساب الفرد الساعي للتمتع بوقته وإنما – كما يشرح آصف بيات- ففكرة المتعة في ذاتها تهدّد جمود هذه الأنظمة بل وشرعيتها لأنها تطرح تصورات وإمكانات مختلفة عن الكيفية التي يمكن أن تعيش من خلالها الأفراد والمجموعات حيواتها.

كما يهدّد المرح والمتعة المرتبطة بالشتائم واستخدام الألفاظ البذيئة رموز السلطة، فالألتراس معتادون على تشبيه الداخلية بالغربان والسخرية من الضباط وتحصيلهم العلمي الضعيف.

في هذا المنحى يبين لنا الفيلسوف الكاميروني "أكيل ميمبيه" طبيعة العلاقة بين السلطة الحاكمة والمحكومين وكيف أن المحكومين يقوضون ويضعفون من أثر السلطة عن طريق جعل رموز بطش هذه السلطة وقوتها مواداً للاستهزاء والسخرية وكذلك من خلال استخدام الشتائم والبذاءات. (ميمبيه، 1992، ص 5-12)

مثلت أحداث يناير 2011 والمواجهات العديدة التي تبعتها بين الشرطة والجموع الثائرة اختباراً صعباً للألتراس، فمنذ البداية اختارت قيادات التنظيم عدم الإعلان رسمياً عن مشاركة الألتراس في المظاهرات، يقول "أ.م." أحد القيادات السابقة لألتراس أهلاوي "لقد بدأت مجموعات الألتراس الثورة قبل الثورة لأنها كانت تواجه وزارة الدخلية في الاستاد منذ زمن، كما كانت هناك مناقشات حامية داخل الجروب السرّي حول إعلان مشاركتنا الرسمية في المظاهرات، ولكن بالطبع لم يكن بإمكاننا أن نطلب من جميع أفراد المجموعة المشاركة في المظاهرات رغم علمنا أن الكثيرين من الألتراس سيشاركون لذلك فضلنا أن نترك القرار لحرية الأفراد الشخصية".

كما يقول "رمزي" أحد القيادات الحالية كلاماً مشابهاً "من ينضم للأولتراس يفعل ذلك لأنه يشجع الأهلي ولا يخصني إذا كان أحدهم إخوان مسلمين أو يؤيد مبارك، كما أننا إذا طلبنا منهم المشاركة بشكل رسمي فإن ذلك يعني أننا نتحمل مسؤولية أرواحهم وحمايتها وهو بالطبع ما لا يمكننا فعله".

ومع ذلك كانت بسالة الألتراس في المعارك القتالية وخبرتهم الواسعة في قتال الشوارع محل احتفاء الكثيرين، هذه الشجاعة كان يفسرها البعض كنتيجة لخبرة هذه المجموعات المتكررة في قتال الشوارع مع الداخلية داخل وخارج الاستاد، أما أفراد الألتراس فقد كانوا يردّونها إلى ما يسمونه "عقلية الألتراس".

يشرح "أمير" الشاب ذو 22 ربيعاً هذه العقلية قائلاً "إذا رأيت الشرطة تهاجم مجموعة وهم جميعاً يفرون، فيما يثبت فرد واحد فقط مكانه ولا يفر مع الباقين ويقف لمواجهة الشرطة، فهذا فرد أولتراس لأن هذا فعل أولتراس".

لكن الخبرة القتالية ربما لا تكون الملمح الوحيد في مشاركة الألتراس في الفعاليات الثورية، رغم أنها الأبرز ولكن إلى جانب شجاعة الألتراس في المواجهات وتقديمهم الشهداء واحداً تلو الآخر، أثرى حضور الألتراس المظاهرات عن طريق فنون المقاومة الكرنفالية التي قدموها بإبداع مدهش في الشوارع والميادين. فالمظاهرات وفعاليات الاحتجاج قبل 2011 اقتصرت على الهتافات العادية، قبل أن تظهر هذه المجموعات الساحرة التي تستخدم فنون "الجسيتويل"أو لغة وإشارات الأيدي الموحدة التي يستخدمها أفراد الألتراس بكثافة أثناء الهتاف مثل الصورة الموجودة أدناه.

وكذلك أدخلت مجموعات الالتراس الألحان القصيرة إلى عالم المظاهرات، وهي الألحان التي تستخدم في المباريات العالمية لتشجيع الفرق والمنتخبات المختلفة، وعادةً ما ينظم الألتراس غناءهم من خلال صافرات أو ترومبت "الطبلة الضخمة" هذه الأدوات التي حولت المظاهرات السياسية الباهتة لكرنفال سياسي صاخب، بالإضافة إلى أعلام الدرابو "الأعلام المعلقة على السنانير والتي أصبحت رمزاً فيما بعد لمسيرات الثوار يعلقون عليها صور الشهداء".

وكان الجميع يميّز مسيرات ومظاهرات الألتراس عن بعد بسبب الانضباط المذهل في ترديد الهتافات، وبسبب حركة المئات الإيقاعية وكذلك بسبب استخدام الشتائم بأريحية شديدة غير مسبوقة في الهتافات والأغاني، هكذا أخرج الألتراس الشتائم والسباب المنغم من محيط الاستاد إلى الميادين والشوارع.

وقد أثرت الهزائم المتتالية التي منيت بها الثورة المصرية على مسار الألتراس الثوري وجعلته وعراً وشديد التعقيد. فالفصائل الثورية كثيراً ما اختزلت أسباب مشاركة جماهير كرة القدم في الفعاليات الثورية في عداوتهم المتأصلة مع

الداخلية وهو تفسير مخل؛ إذ يتعامل هذا التفسير مع الألتراس كأنهم مشجعوا كرة فقط ولا يهتم بأي مكون آخر لشخصياتهم.

يقول احد أفراد الوايت نايتس "إحنا اشتركنا في الثورة عشان نحارب الظلم اللي بتواجهه البلد كلها مش بس الظلم اللي بيواجهه الألتراس، إحنا جزء من البلد"، وقد لخّص الهتاف الذي استخدم في المظاهرات الكبيرة التي انطلقت بعد مجزرة "بورسعيد" مشكلة اعتبار جماهير الكرة عناصر وافدة وغريبة على المشهد السياسي، يقول الهتاف "قتلوا الألتراس الأحرار علشان وقفوا مع الثوار" وكأنهم ليسوا ثواراً هم انفسهم.

في المقابل شعرت مجموعات الألتراس بتوجس دائم تجاه الأحزاب السياسية وسيطر على أفرادها شعور إن الجميع يريد استغلالهم لصالحه إما ككتلة تصويتية أو مليشيا في الاشتباكات أو كأداة دعائية، و كان الكثيرون منهم يرى سعي أي حزب سياسي مهما بلغت ثوريته للوصول إلى الحكم هو محاولة للانقضاض على الثورة واستغلالها.

وقد شهدت مرحلة الانتخابات الرئاسية الأولى في مصر بعد الثورة حالة استقطاب عنيفة بين المرشحين وانعكست هذه الحالة على الفصائل الثورية ومن ضمنها مجموعات الألتراس، وقام بعض الكابوهات وقادة المجموعة داخل مجموعتي الألتراس الكبيرتين (أهلاوي ووايت نايتس) – وفقا لانتماءاتهم السياسية - باستقطاب فرق صغيرة داخل الألتراس لمساندة مرشح بعينه وأدى ذلك بالطبع إلى نشوب خلافات داخل المجموعة الواحدة، وقد عبر العديد من أفراد الألتراس عن سخطهم من تأثير السياسة على وحدة المجموعة وتهديدها للتماسك الحديدي للتنظيم.

غير أن نفور الألتراس من كل ما هو سياسي يعكس مزاجاً مهيمناً داخل الكثير من القطاعات الثورية والتي ترى أن أي فعل سياسي هو فعل انتهازي بالضرورة، كما يعكس هذا المزاج نجاح الدولة التي سعت طويلاً إلى شيطنة العمل السياسي. يقول "بولا" "نحن لسنا سياسيين، نحن وطنيون لذلك شاركنا في الثورة فالثورة عمل وطني وليست سياسي". كما ارتبط عزوف الألتراس عن العمل السياسي بالهزائم القاسية والضربات الموجعة والملاحقة التي تعرضوا لها ولاسيّما مذبحتَي "بورسعيد والدفاع الجوي"، فالإحساس السائد بينهم كان أنهم دفعوا أثماناً لم يدفعها غيرهم من الأرواح والشهداء وأن مكانهم الحقيقي هو المدرج وليس الشوارع والميادين.

عن ذلك يقول "أمير": "المجموعات السياسية تقوى بتواجدها في الشارع أما الألتراس فالتواجد في الشارع يضعفه ويهدد بقاؤه".

"الألتراس مش مجموعة سياسية، احنا مكاننا مش الشارع، احنا مجموعة وطنية ومكاننا المدرج، احنا بس مصدقين في شعارات الثورة زينا زي غيرنا عشان كده شاركنا، بس احنا بتوع كورة".

الرغبة في الانسحاب من صدارة المشهد جاءت أيضاً لغربلة التوسع الكبير الذي شهدته هذه المجموعات خلال سنين الثورة. هنا يعلق "رمزي" على الأعداد الكبيرة التي انضمت للألتراس بعد الثورة قائلاً: "الموضوع مش موضة، الناس دي بتحب الألتراس مش النادي، ممكن تلاقيهم لابسين تي شيرت المجموعة وقاعدين بيه على القهوة في أي يوم، ما عندهمش عقلية الألتراس والمجهولية لو سألت أي حد فيهم الأهلي أخد كام بطولة مش هيعرف، هما بدأوا يهتموا بالكرة بس بعد مجزرة بورسعيد، إنما الألتراس هدفه هو الكيان" أي النادي.

لم تكن عملية العودة للمدرجات أو استحضار روح ما قبل الثورة أمراً ممكناً، فبعد مجزرة بورسعيد عملت الآلة الإعلامية بجوار آلة القمع السياسي على ملاحقة الألتراس وحرمانهم من الجامع الرئيسي لتنظيمهم. فخلال السنوات الماضية تكررت الدعوات لحرمان الجماهير من حضور المباريات مرة بحجة عدم استعداد الشرطة لتأمين المباريات، ومرة أخرى بحجة أن الألتراس مثيري شغب ولا يحق لهم دخول الاستاد، وقد بلغ هجوم الإعلام عليهم الحد الذي دفع أحد كتاب الرأي إلى المطالبة بالسماح بعودة الجماهير للاستاد ومنع الألتراس فقط من دخوله، قائلاً أنه لا يجوز أن يحرم الجميع من متعة مشاهدة الكرة لأن الألتراس يثيرون كل هذه المتاعب، على حسب كلام الكاتب.

ويعتبر منع الجماهير من حضور المباريات سلاحاً أمضى من المجازر، فما الذي يمكن أن يجمع هذا التنظيم ويضمن بقاءه إذا حرم من نشاطه الأساسي وهو الذهاب للاستاد؟!، وفيما سمح النادي الأهلي لجماهير ألتراس أهلاوي بحضور التدريبات في ستاد التتش داخل النادي الأهلي، قاد "مرتضى منصور" رئيس نادي الزمالك والمحامي المثير للجدل والمحسوب على النظام، حملة هي الأشرس من نوعها ضد الألتراس توعدهم فيها بعدم دخول ملعب "زامورا" بنادي الزمالك بل وقام برفع الدعوى القضائية التي سبق الإشارة إليها في بداية الورقة والتي انتهت بحكم حظر روابط الألتراس من حضور المبارايات الخاصة بنادي الزمالك.

في مواجهة كل هذا لخّصت روابط الألتراس معركتها في شعار بديع يعبر عن حقهم المسلوب وهو "الكرة للجماهير" محاولين من خلال هذا الشعار أن يدافعوا عن حقهم في حضور المباريات مؤكّدين أن المباريات تُلعب لأجل الجماهير التي تذهب إلى الاستاد ولا تُلعب لأجل الرعاة أو الإعلانات مشاهدي المنازل والمقاهي.

ومن المهم هنا أن نتذكر أن هذا الجيل قد شهد موجات تلفزة الكرة حيث أصبح الذهاب إلى الاستادات عادة في سبيلها إلى الاندثار فيما عدا الأحداث الرياضية الكبرى، وقد أعادت روابط الألتراس الحياة مرة أخرى للاستادات كأماكن ومنتزهات عامة وتحوّلت الملاعب – على أيديهم- من أماكن شبه مهجورة أو أماكن موسمية تزار في البطولات الإقليمية أو المباريات الكبرى إلى طقس أسبوعي لعشرات الآلاف من الفتية والشباب الذين قرروا مجتمعين إعادة امتلاك هذه المساحات.

كيف يبني الألتراس روابطهم؟ دروس في التنظيم المجتمعي

الانضباط شبه العسكري في حركة الالتراس والهتاف دفع الكثيرين لافتراضات حول هرمية تنظيم الألتراس أو مقارنته بتنظيم الإخوان. ورغم وجود عناصر متشابهة في مجمل التنظيمات القوية إلا أنه لا بد من التدقيق في الطريقة التي يبني بها الألتراس روابطهم وينتجون من خلالها تنظيماً قوياً.

يبني الألتراس روابطهم من خلال هرميّات متعددة ومتشابكة، فالكابوهات قادة الغناء في الاستاد ليسوا بالضرورة قادة المجموعة دائماً وأبداً، كما أن للمجموعة تقسيم جغرافي يقسم أفرادها إلى سكاشن حسب أماكن سكنهم، ولكل سكشن من هؤلاء يوجد مسؤول يسمّى (الاكتف active) وهكذا يكون الاكاتف والكابوهات والأفراد الثقات ما يسمى بالمجموعة السرية، المسؤولة عن العديد من القرارات مثل الدخلة التي ستنفذها المجموعة في بداية المباراة، أو تجهيزات السفر والرحلات ومواقف المجموعة التي تعلن على صفحاتها من خلال البيانات والتصريحات.

ولا يعني ذلك وجود هرمية جامدة داخل التنظيم، فأفراد السكاشن لهم حرية في تصميم الجرافيتي الخاص بمنطقتهم والذي عادةً ما يختارون له حوائط ممتدة يتنافسون عليها مع مجموعة الألتراس الأخرى داخل الحي وينسقون ذلك مع مسئولي السكشن، كما يحق للأفراد حرية اقتراح وتأليف الأغاني أو تصميم دخلات معينة.

وبما أن مبدأ المجهولية هو السائد فالجميع يشعر أنه قدّم شيئاً للمجموعة من أجل مساندة ناديه دون أن يعنيه الثناء أو التقدير مقابل هذا العمل.

كما يمثّل التمويل الذاتي معياراً مهماً لاستقلالية الألتراس في اتخاذ قرارتهم وفقاً لقادة المجموعات، فبعكس روابط الأندية التي سبقتهم والتي يتم تمويلها من مجالس إدارة الأندية يمنحهم التمويل الذاتي حق اتخاذ قراراتهم بحرية دون تدخل إدارة النادي، فيقول "سامبو" أحد كابوهات الوايت نايتس "لا يمكنهم أن يدفعوا لنا لأن نسب أو نمدح لاعب أو إداري بعينه كما كان يحدث قبل ذلك، فروابط الأندية كانت تستخدم لتصفية الحسابات داخل النادي، لكن احنا وضعنا مختلف".

يموّل الألتراس أنفسهم من خلال المبالغ المالية التي يجمعها قادة المجموعة وأعضاء دائرة الثقة مقابل المنتجات التي يقومون ببيعها لأفراد المجموعة، فكل عام هناك مجموعة من المنتجات يتم تصميمها مثل ال"تي شيرتات" والبنطلونات الكوفيات والقبعات التي تحمل شعار المجموعة وتصميمات مختلفة.

كما يتم الإعلان من خلال صفحة المجموعة عن اجتماع لحجز المنتج قبل نزوله ويذهب أفراد المجموعة يدفعون مقدماً مقابل المنتج الذي يشترونه وبعد شهر أو نحو ذلك يتم تنظيم اجتماع آخر لتوزيع المنتج على الأفراد، ويتم اتّباع نفس العملية عندما تنتج المجموعة "سي دي" لأغنياتها الجديدة أو في حالات تنظيم الرحلات للسفر مع الفريق، تستخدم المجموعة السرية هذه الأموال للإنفاق على الدخلات وأدوات التشجيع ولتغطية تكاليف السفر أو إنتاج ال"سي ديهات" وغيرها.

وبعيداً عن هرميّة التمويل وطرق تنظيمه، يبقى النجاح الأبرز لهذه المجموعات هو قدرتها على استحداث شكل مبتكر للتنظيم المجتمعي، فجميع أنشطة وممارسات المجموعة هي أنشطة لخلق روابط مختلفة بين أفرادها وربما هذا ما يفسر قوة الألتراس كتنظيم.

ومن خلال هذه الروابط المجتمعية ينجح الألتراس في خلق مجتمع عابر للطبقات وأحياناً عابر للأجيال بصورة ما.

الألتراس كأخوية

أحد طرق بناء هذه الروابط بين المشجعين هو تكوين أخوية، وتغيب بشكل كبير ثقافة الأخويات كشكل تنظيمي وثقافي في مصر، فلا يوجد تقريباً تنظيمات بهذا الشكل سوى الإخوان المسلمين وجمعيات الشبان المسيحيين التابعة للكنيسة، لذا فالألتراس أخوية من نوع آخر غير متمركزة حول ديانة أفرادها.

وستلاحظ بسهولة إذا تواجدت في مباراة أو مران أو مظاهرة للألتراس الروح الرفاقية السائدة بينهم، يتحركون سوياً داخل وخارج الاستاد، وحتى بعيداً عن المباراة تظل حياتهم مرتبطة ببعضهم البعض داخل ما يعرف بالسكاشن؛ فأفراد السكشن الواحد عادةً ما يقضون أوقاتهم سوياً إما استعداداً للمباراة القادمة أو لرش الجرافيتي داخل حيهم أو لأجل التنزه أو لعب الفيديو جيم وغيرها، يقول أحد أفراد الألتراس أنه مع الوقت تجد أنّ علاقتك بالأشخاص الآخرين "غير المنتمين للألتراس" تضمر، ولا يقتصر الأمر على مجرد تمضية الوقت أو الذهاب معاً للمباريات ولكن يقوم أفراد الألتراس الأكبر سناً بمساعدة الأصغر سناً في استذكار دروسهم، و يحضرون المناسبات الاجتماعية لبعضهم البعض كالأفراح والعزاءات، وخلال رحلات المجموعة لتشجيع الفريق في مدينة تُقسم الأتوبيسات حسب السكاشن ويسافر أفراد المنطقة مع بعضهم.

هذه الروح الرفاقية هي من أهم الفروق التي تحدث عنها "زيبيتشي" في قراءته ل"ماكس فيبر" وتفرقته بين التجمع association والمجتمع community فالتجمع يسعى لتحقيق مصالح أفراده وتمثيلهم فيما يعنى المجتمع بالعلاقات بين أفراده ولا يهمه تمثيلهم بقدر التضامن بينهم، ويفسّر ذلك العديد من القيم والشعارات الحاكمة للألتراس ومبادئهم مثل إنكار الذات والمجهولية والبعد عن الإعلام، والدفاع عن الأصدقاء وحمايتهم، هذا المبدأ الأخير عنصر أساسي في رؤية الألتراس لأنفسهم كمجموعة معرضة للخطر وتتورط كثيراً في مواقف عنيفة.

موقف الألتراس من العنف هو أمر شديد التعقيد ربما لا يتسع المجال هنا لمناقشة كل تناقضته وإشكالياته ولكن يمكننا النظر لوظيفية حوادث العنف والمعارك المشتركة التي يخوضها أفراد المجموعة والتي تعمل كنسيج ضام يجمعهم سوياً ومكون أساسي لخبراتهم الجمعية التي تدافع عن "شرف المجموعة"ضد الشرطة أو ضد المجموعات الأخرى، فتجريد المجموعة من بانرها وأعلامها أو إجبار أفرادها على تسليم "تي شيرتاتهم" هو دليل على فقدان المجموعة لشرفها، بالتالي تستثمر أي مجموعة أولتراس في بناء "رأس مال بدني" وتعلي من شأن حماية الأفراد لبعضهم وقيم حماية ظهر الأصدقاء (روبسون، 2000).

وتمثل مشاركة المجموعة كلها في الاشتباكات ما يصفه "زيبيتشي" في دراسته للسمات الأساسية للمجتمعات المدينية؛ وهي أن تكون هذه المجتمعات مجتمعات غير منفصلة undivided community والمقصود هنا هو أن الدفاع عن

المجموعة أو التنظيم ليست مهمة موكلة إلى بعض أفرادها كأنهم قوة قتالية عسكرية أو بوليسية، إنما هو مسؤولية جميع أفراد التنظيم.(زيبيتشي، 2010)

العنف هو السبب الذي يسوقه أغلب الأفراد لعدم تواجد الفتيات بينهم، فهم يقولون أن وجود الفتيات شبه مستحيل لأن هجوم الشرطة عليهم ونشوب الاشتباكات بينهم وبين الآخرين أمر دائم الحدوث، يقول "بولا" في رده على سؤال غياب الفتيات عن الألتراس: "إذا وقعت اشتباكات بيننا وبين الشرطة، هل من المفترض بي حينها محاربة الشرطة أم حماية ظهور رفاقي، أم الالتفات للفتاة التي ستكون موجودة ومحاولة حمايتها؟ هي ستصبح عبئاً عليّ في موقف مثل هذا".

ذكر الألتراس أسباباً متنوعة وأحياناً متناقضة لغياب الفتيات، فالبعض ذكر أن استبعاد الفتيات أمر متعارف عليه بين مجموعات الألتراس المختلفة في أي دولة، فيما أشار آخرون أننا نعيش في مجتمع شرقي لا يحبّذ الاختلاط، وذكر أحد قياداتهم السابقة أن حصر التنظيم على الذكور سببه تجنّب المشاكل التي قد يسببها وجود الفتيات وتنافس الفتية عليهن.

بشكل عام لا يبدو أفراد المجموعة منشغلين على الإطلاق بهذا السؤال، في حين تؤرّق هذه المسالة الباحثين أو المراقبين لهذه المجموعات أكثر ما تشغل بال أفرادها أنفسهم، بيد أن السياق المجتمعي وطبيعة الملاعب تجعل من السهل أن يكون الألتراس تنظيماً حصرياً للذكور.

ربما من المفيد هنا الحديث عن تجربتي كباحثة وسط هؤلاء المئات من الفتيان، بالطبع التجربة الميدانية مع الألتراس كانت بمثابة تذكير دائم لي بجنسي، وكانت تتأرجح دائماً بين ضدّين، فقد يعاملونني باهتمام زائد متحرّين عن سبب وجودي بينهم أو يعتبرونني كماً مهملاً غير مرئي.

في المرات القليلة التي حضرت اجتماعاتهم العامة في محيط الاستاد بالقرب من "بانوراما أكتوبر" كانوا يلحظون وجودي في ثوان معدودة ويقترب مني المنظمون ليمنعونني من الحديث مع الحاضرين ويسألون عن هويتي المهنية وماذا أفعل، أما في الاستاد وأثناء تمرينات الفريق في النادي كانوا دائماً ما يفسحون لي مكاناً في المدرج يسمح لي بالوقوف في شبه منطقة خالية وسطهم في استعراض حمائي من جانبهم، وفي أوقات أخرى ينجحون تماماً في تجاهلي عن عمد، فخلال رحلتي مع أحد مجموعات الألتراس لحضور مباراة في مدينة ساحلية نجح العشرات الذين كانوا معي في الأتوبيس في تجاهل وجودي طيلة عشر ساعات زمن الرحلة ذهاباً وإياباً فيما عدا بعض التعليقات الساخرة في البداية عن وجود "حريم"بينهم.

الألتراس كتنظيم صوتي

لم يعد للتقسيم المناطقي نفس الحدود المرسومة بعناية داخل الاستاد، فبعد دخول الاستاد والاتجاه للكورفالا يلتزم الغالبية بمقاعد معينة بالضرورة، وينشأ نوع آخر من الروابط المجتمعية بين الأفراد عبر الاندراج في أنشطة مشتركة مثل الغناء والأداء الاستعراضي الجماعي، فعادة ما تبدأ المباراة بالتيفو أو الدخلة، وهو اللوحة التي يصنعها أفراد الألتراس جميعاً في بداية المباراة، والتي تتم عادة من خلال تقطيع مربّعات من الجلد الملوّن وتوضع على كراسي المدرج ويطلب من المشجعين رفعها عندما يعطي الكابو الإشارة لذلك.

والدخلات مصدر فخر وتنافس بين المجموعات المختلفة وهي في أغلب المباريات سرية حتى لا يعلم ألتراس الفريق المنافس الدخلة ويصبح مستعداً لها.

في نهاية الدخلة عادةً ما يبدأ الغناء، والغناء ليس شيئاً هامشياً في حياة مجموعات الألتراس، فالصوت هو المعبر الأساسي عن وجودهم ، كما أن غناءهم ليس كأي غناء تشجيعي فمن السهل تمييز وجودهم في أي مكان من خلال غنائهم وهتافهم الجماعي شديد الانضباط والمقطّع بطريقة شبه عسكرية، والذي عادةً ما تنظمه الطبلة والصافرات والتصفيق.

الإصرار على التناغم والدقة في غناء الألتراس هو وسيلة لضبط الأفراد داخل التنظيم من خلال الاهتمام الزائد بضبط إيقاع المجموعة ورفض أي نشاز داخلها، يحدث ذلك من خلال وقوف الكابوهات (قادة الهتاف والغناء داخل الاستاد) على السماعات الكبيرة التي توضع أمام المدرجات معطين ظهورهم للملعب ووجههم للجمهور، يصطف بضع كابوهات أمام المقاعد المختلفة بطول الكورفا ويعطون إشارة البدء بالأغنية عن طريق غناء أول جملة منها بصوت مرتفع وببطء نسبي ليبدأ بعدها هدير الجماهير، أما إذا تخلّف قطاع من المشجعين أو سبق الباقين في الغناء فيقوم الكابو حينها بفتح وغلق قبضة يده عدة مرات وهي إشارة معناها السكوت وعندما يصمت هذا الفريق يجعلهم يستمعون للباقين ليلتقطوا الإيقاع الصحيح، ومن ثم يشير لهم بالانضمام مرة أخرى.

هكذا يمثل الإنشاد الجماعي المتناغم وسيلة لصنع روابط مجتمعية بين أفراد الألتراس المختلفين داخل المجموعة أثناء الحدث، فالمشجّع يدع صوته يذوب وسط صوت المجموعة، ولا يصبح للصوت الفردي قيمة في ذاته ولكنه جزء لا يتجزأ من هدير الجموع، هذا الغناء الجماعي في رأي البعض هو وسيلة لتجاوز اختلافات الطبقة والسن والمنطقة السكنية وغيرها من المحددات الخاصة بالمشجعين (راسل، 2008، ص 127)، ويبني الألتراس من خلال هذا الغناء ما يمكن وصفه بالمجتمع الصوتي acoustic community (كايتو،2011).

كما يضيف منظِّروا الغناء المجتمعي في بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية أن الغناء الجماعي أو الكورال هو عملية تحوليّة تنقل المستمع السلبي إلى مغنّ إيجابي مشارك، وهي نفس وجهة نظر الألتراس المؤمن بأن المشجع له دور وليس مجرد متفرّج سلبي، وإنما مشارك في المباراة بحضوره وصوته وأدائه الجسدي.

الملاحظة الأخيرة على وظيفة الصوت داخل مجموعات الألتراس هو أنه وسيلة لترسيم حدودهم المكانية عند الحل والترحال، بمعنى أنّ الصوت هنا يؤطّر مكانياً وجود الألتراس داخل الاستاد وخارجه، حيث يصرّ الألتراس داخل الاستاد على الجلوس فيما يسمى المنطقة العمياء أو المنحنى curve وترسيم حدود المكان صوتياً هو تكنيك متّبع لإثبات حضورهم في هذا المكان وترهيب الأمن وكذلك ألتراس الفرق المنافسة.

ولا يقتصر هذا الترسيم المكاني على الاستاد، فالصوت يلعب دوراً محورياً في "الكورتاج"وهي المسيرة التي يقوم بها الألتراس عند سفره خلف الفريق إلى مدينة أخرى ليعلنوا عن وصولهم إلى المدينة المضيفة وخلال المسيرة يحمل المشجعون بانر المجموعة ويسيرون في شوارع المدينة وهم يغنون أغنيات فريقهم ويشعلون الشماريخ.

الالتراس كجماعة المتخيلة

ما يجمع أفراد الألتراس كما سبق الإشارة هو حبهم المطلق للنادي واستعدادهم للتفرغ التام لمساندته في حالات الفوز والهزيمة على حد سواء، هذا الحب المطلق يدفعنا للسؤال عن ماهية النادي، ما الذي يعنيه أفراد الألتراس عندما يقولون النادي.

عند سؤالهم عن ذلك لم أتلقّ سوى إجابات غامضة مثل "النادي هو رمز أو كيان". من الواضح إنه لا يمكن اختصار النادي في فرقة كرة القدم وإن كانت هي الرياضة الأهم لديهم ولكن الألتراس يشجّعون ويحضرون جميع مباريات الألعاب الجماعية (كرة سلة، يد، طائرة)، كما لا يمكن اختزال النادي في لاعبيه فالألتراس يقولون عادةً أن اللاعبين زائلون والنادي هو الباقي.

وبالطبع لا يمكن أن يكون النادي هو مجلس إدارته، وأخيراً فالنادي ليس هو المساحة المكانية التي يحتلّها لاسيّما إذا علمنا أن أغلب أفراد الألتراس ليسوا أعضاء في الأندية التي يشجعونها؛ فالأهلي والزمالك ناديان تكلّف عضويتهما عشرات الآلاف من الجنيهات.

اختصاراً، يوجد عنصر متخيّل فيما يتعلّق بهذه المحبة المطلقة للنادي وبما يشكل النادي هذا العنصر المتخيل شبهاً بالأفكار القومية عن الانتماء والهوية والجماعة التي يتم اعتبارها بنيان يرتبط الفرد به ليصبح جزء من كل.

فإذا ما اتبعنا نظرية (بنيدكت أندرسن، 1991) بأنّ الأمّة هي جماعة سياسية متخيلة إذ لا يعرف أفرادها جميعاً بعضهم البعض يمكننا تطبيق نفس المثل في حالة الألتراس الذين لا يعرفون بعضهم بعض شخصياً ولا يعرفون باقي مشجّعي الأهلي أو الزمالك من غير الألتراس.

بالطبع لا يكفي غموض مفهوم النادي لصنع جماعة متخيلة بين مشجعيه ولكن يجب أيضاً ان يكون هذا النادي قومياً وممثلاً لدور وطني في لحظات متعددة في تاريخ البلاد.

ينطبق ذلك إلى حد بعيد على جماهير الأهلي التي لديها معين لا ينضب من الحكايات عن مواقف الأهلي الوطنية منذ لحظة تأسيسه على يد زعماء وطنيين مثل "سعد زغلول" مروراً بمواقف الأهلي تجاه الاستعمار والقضية الفلسطينية وحروب 1965، و 1967، و1973.

حتى بعد التحول الكبير في إدارة النادي خلال فترة رئاسة "صالح سليم" له وابتعاده التام عن الشؤون السياسية وتركيزه على أمور النادي فقط[9]، بدأت الجماهير تعظم من شأن قصص صغيرة عن تحدّيه لمبارك في معركة داخل المدرج حول المكان الذي يجب أن يجلس فيه رئيس النادي.

هذه القصص عن وطنية النادي عبر الزمن تؤدّي دوراً جوهرياً في تصالح الألتراس مع إدارة النادي وتجاهل الفروق الطبقية بين الألتراس وبين مديري الأندية، فالجميع جزء من الجماعة المتخيلة التي تسعى لتحقيق مصالح النادي والوطن.

9 وثائقي عن الأهلي ودوره الوطني: https://www.youtube.com/watch?v=XBY2Yxis-jg

خاتمة

بدأتُ تتّبعي لمجموعات الألتراس لمحاولة الإجابة عن سؤال كيف يتم تدريب الفرد ليكون جزءاً من جماعة محكمة التنظيم، ورغم مركزية آليات اتخاذ القرار داخل المجموعات في بعض الأحيان، يظلّ الجزء الأكثر إدهاشاً هو كيف نجحت هذه المجموعات في بناء مجتمع قوي وروابط متينة بين المشجعين، وكيف يمكن أن يكون السعي وراء المتعة وحب النادي خيطاً ناظماً لآلاف المشجعين يدفعهم لإعادة امتلاك الأماكن العامة مثل الاستاد وإحيائها من خلال التشجيع الجماعي.

المصادر

جميع الصور من صفحة "ألتراس أهلاوي" على فيسبوك باستثناء صورة أعلام الشهداء بعدسة "محمد عمار".

"محمد جمال" (2011)، كتاب الألتراس: عندما تتحدّى الجماهير الطبيعة، دار دون

Guschwan, M. (2007). Riot in the Curve: Soccer Fans in Twenty-first Century Italy. *Soccer & Society*. 8 (2-3), p250-266.

Giuliatonni, R. (2011). Sport Mega Events, Urban Football Carnivals and Securitised Commodification :The Case of the English Premier League.*Urban Studies*. 48 (15), p.3298-3310

Bayat, A. (2007). The Politics of Fun. In A. Bayat, *Life as Politics: How Ordinary People Change the Middle East* (pp. 137-160). Amsterdam: Amsterdam University Press.

Mbembe, A. (1992). The Banality of Power and the Aesthetics of Vulgarity in the Postcolony. Public Culture. 4 (2), p.1-30.

Zibechi, R. (2010). *Dispersing Powe: Social Movements as Anti-State Forces.* Oakland, Edinburgh, Baltimore: AK Press.

Russel, D. (2008). Abiding memories: The community singing movement and English social life in the 1920s. *Popular Music*, *27*(1), 117–33.

Kyto, M. (2011). 'We are the rebellious voice of the terraces, we are Çarşı': constructing a football supporter group through sound. *Soccer & Society*. 12 (1), p77-93.

Anderson, B. (1991). *Imagined communities: Reflections on the origin and spread of nationalism.* Rev. ed. New York: Verso.

Hobsbawm, E. (1990). *Nations and nationalism since 1780: Programme, myth, reality.* Cambridge: Cambridge University Press.

Robson, G. (2000). *'No One Likes Us, We Don't Care' The Myth and Reality of Millwall Fandom*. Oxford: Berg. P.1-203.

عن الكاتب

داليا عبد الحميد مسئولة ملف النوع الاجتماعي وحقوق النساء بالمبادرة المصرية للحقوق الشخصية، قبل 2011 عملت داليا في نفس المنظمة لكن في برنامج الحق في الصحة حيث اشتملت مسئولياتها على المناصرة وكسب التأييد لقضايا الصحة والحقوق الإنجابية والجنسية. حاليا تقتضي متطلبات عملها متابعة العمل على الحقوق والصحة الإنجابية والجنسية إلى جانب توثيق التمييز على أساس النوع الاجتماعي في المجال العام وكذلك تعميم منظور النوع الاجتماعي داخل الكبادرة المصرية. كما شاركت داليا في تأسيس مجموعة قوة ضد التحرش والاعتداء الجنسي الجماعي، وهي مجموعة تهدف إلى مقاومة حالات العنف الجنسي ضد النساء أثناء الاحتجاجات السياسية.
حاليا تستكمل داليا دراستها للحصول على درجة الماجستير في قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجي بالجامعة الأمريكية بالقاهرة وتكتب رسالتها عن جماهير كرة القدم المنظمين (الأولتراس). شاركت داليا في كتابة العديد من تقارير حقوق الإنسان ومقالات الرأي.

عن برنامج دعم البحث العربي – الدورة الثانية

تسعى مبادرة الإصلاح العربي إلى تشجيع وتعزيز مبادرات بحثية جديدة وتكوين فرق عمل تعمل على بلورة سياسات وإعداد بحوث. تقدم مبادرة الإصلاح العربي تمويلا متواضعا للباحثين في المنطقة العربية من خلال برنامج دعم البحوث العربية. يهدف البرنامج إلى تنمية مهارات البحث لدى الجيل الجديد منعلماء الاجتماع والعلوم السياسيّة والسياسات العامة والاقتصاد السياسي في الدول العربية. و تعطى الأولوية للبحوث المبتكرة والمستندة إلى الأدلة العلمية، والمرتبطة بالتحولات الديمقراطية العربية لا سيما في تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا

عن مبادرة الإصلاح العربي

تأسست "مبادرة الإصلاح العربي" عام 2005 كشبكة مستقلة من مراكز ومعاهد بحثية عربية وأروبية وأمريكية. ورسخت المبادرة منذ تأسيسها انطباعاً قوياً في الأوساط البحثية ودوائر صنع القرار باعتبارها منتجة للمعرفة، من خلال الأبحاث، وبناء مجموعات عمل في دول مختلفة، وتطوير شبكة واسعة من الباحثين والنشطاء ممن يتقاسمون الرؤى الإصلاحية.

مبادرة الإصلاح العربي، نيسان/أبريل2016

www.arab-reform.net

© 2016 مبادرة الإصلاح العربي تحت رخصة المشاع الإبداعي، اضغط لقراءة الرخصة الكاملة

contact@arab-reform.net